جماليات المكان
في
شعر المهجر الشرقي

إعداد الدكتور

زاهر حسين جبران الفيفي

المستخلص

تتناول هذه الدراسة جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي مرتكزة على محورين الأول: توظيف المكان الأم في شعر المهجر الشرقي وجمالياته ،والثاني : توظيف أماكن المهجر في شعر المهجر الشرقي وجمالياته، مستندا على المنهج الوصفي التحليلي .

وقد كشفت هذه الدراسة أن توظيف شعراء المهجر الشرقي للمكان الأم في قصائدهم قد جاء متخذا ثلاثة اتجاهات : اتجاه اتخذ من الحنين والشوق للمكان الأم وسيلة لتوظيف المكان، واتجاه عمد إلى توظيف الرمز للدلالة على المكان، واتجاه ثالث اتخذ من التغني بالطفولة والانتماء وسيلة لتوظيف المكان .

كما كشفت هذه الدراسة أن شاعر المهجر الشرقي قد تغنى ووظف أماكن المهجر الشرقي ،وهذا التوظيف اتخذ ثلاث اتجاهات أيضا: اتجاه اعتمد على وصف الطبيعة في توظيف أماكن المهجر الشرقي، واتجاه اتكأ على الرمز في توظيف المكان ،واتجاه دفعه الحنين للمهجر الشرقي بعد خروجه منه إلى توظيف أماكن من المهجر الشرقي في شعره،وكل هذا التوظيف في المحورين السابقين قد ساهم في التشكيل الجمالي للنصوص الشعرية.

المقدمة

إن توظيف المكان في الشعر العربي من الصور الشائعة قديماً وحديثاً، وذلك لأن المكان له تأثير مباشر في نفس الشاعر، حيث يستطيع من خلاله أن يشير لدلالات كثيرة ومتنوعة سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم سياسية أم فكرية أو غيرها ، فالإنسان والمكان تربطهما علاقة وطيدة بشكل عام ،وتأخذ هذه العلاقة خصوصيتها أكثر مع الشعراء ، عندما يعمدون لتوظيف المكان فيما ينظمونه من شعر ،مع ربطه بدلالات متنوعة ،يريد الشاعر من خلالها إيصال رسالة للقارئ عن طريق المكان الذي تغنى به في شعره ؛ لذا يمكن القول أن توظيف المكان أصبح من العناصر التي تشكل جمالية النص الأدبي.

وعند التأمل في شعر شعراء المهجر الشرقي الذي أنتجه العرب المهاجرون إلى بلاد الشرق الأقصى وبخاصة (أندونيسيا – وماليزيا – الفلبين – سنغافورة، الهند)[1]، يجد أن المكان قد وظف في ذلك الشعر ، توظيفا يحمل دلالات متعددة ومتنوعة ، غير أن هذا التوظيف لم تتناولها الدراسات النقدية في حدود علم الباحث ، لذا رأيت أن يكون عنوان هذه الدراسة (**جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي**) **ومن ثم فإن هذه لدراسة هدفت إلى**:

– دراسة تجليات المكان في شعر المهجر الشرقي الذي وظف المكان توظيفا له دلالاته

(١) أدب المهجر الشرقي ، د. محمد عبدالرحمن الربيع، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ، سلسلة الدراسات الأدبية، العدد ١، ١٩٩٩، ص٤.

- إبراز جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي من حيث الرؤية والتشكيل الفني.

- إبراز النموذج المتميز لشعر المهجر الشرقي الذي أغفلته الدراسات النقدية.

وتأتي أهمية هذا البحث في أن المكان قد شكل حضورا لافتا في شعر شعراء المهجر الشرقي وهذا الحضور له سماته الفنية ،ودلالاته المتعددة ،مما سيثري أي دراسة تتناوله، وبما أنه لا توجد أي دراسة تناولت جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي تأتي أهمية هذه الدراسة. ولقد كان لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب منها:

-عدم وجود دراسة سابقة تناولت جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي ، على الرغم من كثرة المادة الشعرية، واشتمالها على العديد من الظواهر الجمالية؛ حيث لم تقع عين الباحث -في حدود علمه-على أي دراسة في هذا الجانب.

- رغبتي في المشاركة في حركة البحث العلمي في الأدب العربي .

-إثراء مكتبة الأدب العربي بمثل هذه الدراسات، التي تعد إضافة في هذا المجال.

- رغبتي في دراسة توظيف المكان في شعر شعراء المهجر الشرقي وإبراز مافيه من جوانب في الرؤية والتشكيل الفني .**أما تساؤلات البحث ومشكلاته** : فتكمن في أن المتتبع لشعر شعراء المهجر الشرقي يجد تقصيراً ملحوظاً من قبل الدارسين المحدثين تجاه هذا النتاج الشعري ؛ولم يحظ باهتمام الدارسين كما حظي شعر المهجر الشمالي والجنوبي، ولم

يلتفتوا بصورة واضحة لدراسة ما في شعرهم من سمات موضوعية وفنية ، وعليه فإن هذا البحث سيحاول الكشف عن عنصر من عناصر .جماليات النص الأدبي وهو حضور المكان في شعر المهجر الشرقي وجماليات ذلك الحضور.

لذا فقد حاولت هذه الدراسة الإجابة على تساؤلات منها :هل للمكان حضور في شعر المهجر الشرقي ،وإذا كان له حضور فما مدى نجاح الشعراء في توظيف المكان؟ ،وما دلالات ذلك التوظيف وجمالياته الفنية ؟

وللإجابة على هذه التساؤلات قسمت الدراسة إلى محورين :

- توظيف المكان (الوطن الأم) في شعر المهجر الشرقي وجمالياته .
- توظيف أماكن المهجر لدى شعراء المهجر الشرقي وجماليته .

ثم جاءت الخاتمة وفيها أبرز النتائج التي وصلت إليها الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن من الدراسات السابقة التي تعرضت لأدب المهجر الشرقي هي دراسة الدكتور :محمد عبدالرحمن الربيع ؛التي عنوانها (أدب المهجر الشرقي) وهي دراسة قيمة تقع في حوالي ١٥٣ صفحة ،حيث تعد أول دراسة تحدثت عن أدب المهجر الشرقي وقد تناولت الحديث عن مفهوم أدب المهجر الشرقي ، كما تناولت الحديث عن الصحافة العربية في المهجر الشرقي والمجلات الأدبية ودورها في نشر وحفظ أدب ذلك المهجر ، كما تحدثت هذه الدراسة عن العلاقة بين أدباء المهجر الشرقي والأدباء العرب في العالم العربي ،وعن إسهامات ذلك الأدب في نشر الوعي الديني والسياسي والأدبي ،كما اهتمت بعرض الاتجاهات الموضوعية

والفنية في أدب المهجر الشرقي ،ويتضح أن هذه الدراسة عامة شملت النثر والشعر والاتجاهات الموضوعية والفنية في ذلك المهجر.

وتختلف دراستي هذه عن دراسة الدكتور محمد الربيع من حيث الكم والكيف ،حيث وقفت هذه الدراسة على ظاهرة توظيف المكان في شعر المهجر الشرقي محاولة الكشف عن جماليات ذلك التوظيف ، وهذه كلها لم يقف عندها الدراسون، أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي القائم على الوقوف على نماذج شعرية دالة تجلى فيها توظيف المكان ،وبيان دلالات ذلك التوظيف والقيمة الجمالية لذلك التوظيف .

أما المنهج الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، القائم على استقصاء ظاهرة توظيف المكان ودراستها .

جماليات المكان في شعر المهجر الشرقي

تمهيد

شعر المهجر الشرقي هو ذلك الشعر الذي أنتجه العرب المهاجرون إلى بلاد الشرق الأقصى وبخاصة (أندونيسيا وماليزيا ،والفلبين ،وسنغافورة ، والهند)[1] ، ولقد انصرف أكثر النقاد عن دراسة ذلك الأدب ، حتى جاء الدكتور محمد عبدالرحمن الربيع ، ووقف على أدب العرب في ذلك المهجر، وقدم لنا مادة علمية جيدة في كتابه (أدب المهجر الشرقي) والذي من خلاله تم التعرف على أدب المهاجر العربي في تلك الديار ، ومع ذلك المجهود الرائع إلا أن ذلك الأدب المهجري بحاجة لمزيد من الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة ، ومن خلال تتبعي لشعر شعراء المهجر الشرقي رأيت أن أكثر شعرهم له تعلق بالمكان، سواء الأصل المهاجر منه ،أو المكان المهاجر إليه، ومن ثَمّ رأيت أن تكون هذه الدراسة حول (جماليات المكاني في شعر المهجر الشرقي).

إن توظيف المكان في الشعر لم تعد ((قاصرة على المكان الطبيعي، أو على الأركان المحدودة بحدود معينة، أو على جنس أدبي معين؛ لأن المكان اتسعت تشكيلاته الفنية والدلالية ، الممثلة في العناصر الكونية، وذلك في معظم الأجناس الأدبية. كما أن المكانية الأدبية جزء جوهري من أجزاء الصورة الأدبية))(٢)، إضافة إلى أن((المكان الشعري لا يعتمد على

---

(١) أدب المهجر الشرقي ، د. محمد عبدالرحمن الربيع، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ، سلسلة الدراسات الأدبية، العدد ١، ١٩٩٩، ص٤.

(٢) جماليات التشكيل المكاني في ديوان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" لأمل دنقل، دراسة نصية: ص٣٨٠. ص٢٧٩

اللغة وحدها، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع))(١) ولم يعد المكان في حركة الإبداع الأدبي يحمل معنى الحيز والحجم والخلاء ؛ لأن (الإنسان، الزمن، المكان) مثلث حي متشابك الفاعلية، ومهما حاول الإنسان الابتعاد عن المكان فهو مغروس فيه، متمكن في أعماقه ، يتأثر به ويؤثر فيه وينظمه ويتكيف معه (٢).وإذا كان الإنسان –بشكل عام– ذا علاقة عميقة مع المكان، فلا شك أن الشاعر سيكون ارتباطه وعلاقته بالمكان أكثر عمقاً وإدراكاً لدلالاته ومعطياته، حيث سيحرص على تفاعل المكان مع المتلقي من خلال توظيفه من أجل لدلالات معينة، ويضفي عليها صوراً جمالية. وهذا ما هو عليه الشاعر منذ عهود بعيدة؛ إذ ((لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه)(٣) وقد أصبح توظيف المكان أكثر تناغماً وفاعلية، إذ أصبح "المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات"(٤).

---

(٣)المرجع السابق ص ٢٧٩

(٢) المفهوم الحديث للمكان والزمان: ب. س ديفيز، ترجمة: د. السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٨، ص ١

(٣) المرجع نفسه ،ص:٧٨

(٤) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص٢٧٩

إنـه لمن الطبيعي أن يكون للمكـان حضور فـي شـعر شـعراء المهجـر الشرقي ،لأن من غريزة البشر الانجذاب إلى المكان سواء الراحل منـه أو القادم إليه حيث يعمد إلى استنطاق دلالاته التاريخيـة والحضارية والنفسية والدينية والسياسية والاجتماعيـة وغيرها ، وهذا كلـه قد يساهم فـي تعميق رؤية الشاعر، فيجعله ينـافح عن مشاعره وأحاسيسـه الباحثـة عن التكيف مع المكان الجديد ،من جهة ، والحنين باستلهام المكـان القديم من جهـة أخرى.

والمتأمل في شعر شـعراء المهجر الشرقي يجد كثافـة توظيف المكـان فـي شـعرهم ،ومـا ذاك إلا نتيجـة طبيعيـة للحنـين للمكـان المهـاجر منـه ، أو الإعجاب بالمكـان المهـاجر إليـه ،وسوف تقف هذه الدراسـة علـى بعض النماذج التي وظف فيها شاعر المهجر الشرقي المكان ، لمعرفـة جماليات ذلك التوظيف ودلالاته، **وذلك من خلال محورين** :

الأول: **توظيف المكان الأم في شعر المهجر الشرقي وجمالياته** .

الثاني : **توظيف أماكن المهجر في شعر المهجر الشرقي وجمالياته**.

فأمـا المحـور الأول :وهـو توظيـف المكـان(الأم) شـعر المهجـر الشرقي وأعنـي بالمكـان الأم الـذي هـاجر منـه الشـاعر ،وقـد جـاء هـذا التوظيـف متخذا ثلاثة اتجاهات : اتجاه اتخذ من الحنين والشوق للمكان الأم وسيلة لتوظيـف الأمـاكن المقدسـة، واتجـاه عمـد إلـى توظيـف الرمـز للدلالـة علـى المكان، واتجاه ثالث اتخذ من التغني بالطفولـة والانتمـاء وسيلة لتوظيف المكـان . فأمـا توظيـف المكـان فـي أبيـات الحنـين فقـد جـاء نتيجـة تـرك الشعراء المهاجرين للأماكن الأصلية نتيجة للظروف المختلفة التي مرو بها

،حيث أن هذه الأماكن تمثل الحياة الأساسية لهم ،وقد حاول الشعراء أن يوظفوا المكان مع الذكريات التي عاشوها في دلالات متنوعة

وأول النماذج التي تقف معها هذه الدراسة هذه الأبيات للشاعر صالح العلوي في قصيدته((حنين المشتاق))[1] التي يقول فيها متحدثاً عن أشواق قلبه إلى مكان قد أحبه ،وارتسمت صورة في مخيلته ،هذا المكان هو بلاد الحرمين (المدينة المنورة):

حدِّثْه عنْ سفحِ العقيقِ وبانه وهناك لا تُنْكر خفوق جنانهِ

فحديثُ ذاك الحي يصبي قلبه حتى يكاد يطير من خفقانه

يعتادُهُ طربا وشوقا كلَّما ذكر الحجاز وشامخات رعانِه

وإذا جرى ذكرُ العقيقِ أزادَه شجوا وأشجانا إلى أشجانِه

أصبو لطيبة كلما هبّ الصبا كصبابة المضنى إلى أوطانه

أشتاق هاتيك الديار وأنتشي بحديث ذاك السفح أو سكانه

ياليت شعري هل ترى عيني حمى قد جاست الأملاك في وديانه؟

(١)ديوان على شاطئ الحياة ،صالح علي الحامدي العلوي ، سنغافورة ،ط١، ١٤٠٤. ص٤٢

وأعفِّـــر الخـــدَّين في تُـــرْب مشـــى فيـــه الـــنبي وصـــالحوا أعوانـــه؟

لقد وظف الشاعر المكان هنا منطلقا من خلال الحنين للوطن حيث الأماكن التي تمثل الحياة الأساسية للشاعر ،وقد استطاع الشاعر أن يوظف الذكريات التي عاشها في قراءة المكان، فالشاعر حينما يتذكر الحديث الذي كان يقوله في تلك الأماكن يشتد تعلقه بها ((فالشاعر لا يقف أمام المكان ليصفه فيقدم لنا قصيدة من قصائد وصف الطبيعة ، ولم يقف أمام المكان راثياً ليقدم لنا واحدة من قصائد رثاء المدن والأمصار ، فالشعراء أعادوا إنتاج المكان بقراءة ملامح الإنسان العربي ، ومن ثم استنطاق هذه الملامح في ظل الرؤيا الشعرية التي تستلهم التاريخ، فالمسألة لا تقف عند حدود تصنيف التجارب حسب الأغراض الشعرية ، كما لا يقف الأمر عند نقل واقع الأحداث في المكان حتى لا يعدو المكان أن يكون لوحة من لوحات الطبيعة تنتقل بالوصف الشعري الذي يبرز جمالها، أولا يعدو أن يكون وعاء يحتضن تجارب الإنسان وأفعاله ويقيه من تقلبات الجو والمجتمعات فيبكيه إذا حلت الأحداث الجسام(١)،بل أصبح المكان كائنا ذات مشاعر يتفاعل مع الشاعر ويتفاعل الشاعر معه ،فمع نظرتنا لهذه الأبيات بدءا من العنوان نجد الاشتياق والحنين إلى مكان الطفولة، فالعقيق والحجاز وطيبة ، أماكن قد أرست علاقة الشاعر المهاجر بالمكان المهاجر منه ، وهي علاقة حميمة أيضا ،جعلت مشاعر الشاعر وأحاسيسه تتحرك تجاهها ، فترجمها

(١) المكان في شعر طاهر زمخشري، رسالة ماجستير، سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ص٥٩.

شعرا. وهذا الالتصاق بالمكان، لإغاثة الذات الشاعرة المشتاقة وقد عمل تكرار ألفاظ الشوق وما في معناه مثل (المشتاق –شوقا – أصبو – صبابة –الصبا – شجوا – أشجانا – أشجانه – أشتاق)على تقريب المسافة بين الشاعر والمكان ، والتنفيس عن الشاعر ، و يبدو أن علاقة الذات الشاعرة الحميمية بالمكان ساعدت بالدرجة الأساس على تشكيل جماليات مبعثها عملية التفاعل مع المكان وذلك من خلال إضفاء كمٍّ من الشحنات الانفعالية في قالب فني مكثف يعكس حلم الشاعر وارتباط خياله بالمكان، وإلى حدٍّ يجعله يتخذ من الأمكنة عتبات نصية، والتكرار قد تعود دلالته إلى نفسية الشاعر، وما يخالجها من عشق وحنين إلى المكان. كما أن الشاعر حينما ((يكرر ألفاظاً بعينها، قد تكون أسماء أو أماكن أو ما شابه ذلك، لدلالة نفسية شعورية، يكون التكرار بؤرة تلك الدلالة النفسية الشعورية، أو قد يكون مركز ثقلها))(١)

ومما زاد جماليات توظيف المكان لجوء الشاعر لأسلوب الحوار والالتفات الذي يشد انتباه المتلقي، حيث بدأ أبياته بقوله(حدّثْهُ عن سفح العقيق) وكأنه يخاطب ويحاور شخصا أمامه ،لقد صنع الشاعر شخصيتين أمامه حيث طلب من إحداهما أن يحدّث الآخر عن تلك الأماكن التي في ذاكرته ،وهي طيبة والعقيق.

لقد بدأ الشاعر بالحوار مباشرة من أول بيت دون تقديم أو تهيئة وكأن الشاعر أراد أن يكون خطابه الشعري مبنيا على الحوار الذي اتكأ هنا على ثلاث شخصيات الأولى تطلب شخصية أخرى أن تحكي للشخصية الثالثة عن المكان الذي أغرم به الشاعر ،واشتاق إليه،

---

١ – ينظر: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر ص ٢٦٠

وفي البيت الرابع يلتفت الشاعر من الحوار والخطاب إلى التكلم ، ليجعل نفسه حاضرة في النص الشعري فيقول(أصبو لطيبة) فيوظف المكان مع كلمة تدل على شدة التعلق والانجذاب وهي كلمة(أصبو) وفي هذا الالتفات السريع من الشاعر في الأبيات فاعلية بين النص والمتلقي ،حيث أن هذا الأسلوب يجعل المتلقي يسرع في فهم الفكرة التي أرادها الشاعر وهي الشوق والحنين لطيبة وما يتعلق بها من أماكن .

إن ظهور معالم البيئة في شعر المهجر الشرقي بكل ما فيها من أودية ، وجبال ، وصحراء ، وخيام ، وخيول، وسيوف ومقدسات يخيّل إلينا أنه لو سمع إنسان مثقف قصيدة من شاعر المهجر الشرقي ، دون أن يدري السامع أن ناظمها من هذه البلاد لارتسم في مخيلته اسم البلاد التي تغنى بها ،ولأدرك أنه قد عاش فيها[1].

((ويحدد فهمنا للعلاقة القائمة بين المكان والشعر الحديث من خلال ارتباطين أساسيين ، الأول كون المكان مقرونًا بالفعل الإنساني، والثاني يعكس المكان من بين ما يعكس خلجات ومشاعر وانفعالات الذات، وهذا التعلق يسمح لنا برصد المكان في الشعر الحديث فتتبدى لنا جمالية المكان بتقديم صورة مختلفة عن المعهود، فالعلاقة التي تحيلنا القصيدة إليها هي المركبة بين اللغة والدلالات المؤشرة على جمالية الواقع من خلال المكان الذي يغدو نسقاً بنائياَ في الشعر، وكل قراءة لهذا المكان

(١) ينظر: الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، د.بكري أمين ،بيروت : مطابع دار صادر ، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م)، ص٢٣٤.

تقترن بالخلق الفني للصورة الشعرية والارتقاء إلى الجمال المادي للأشياء))(١)

إن الناظر في شعر شعراء المهجر يجد أنهم لجؤوا في توظيف المكان إلى الرمز ، فعندما يستدعي الشاعر مكانا محببا لديه يرمز له بما يدل على الحب والاشتياق، فهذا ابن شهاب العلوي ظهر حانا إلى مكانه (تريم) في حضرموت مشتاقا إليه ،وقد رمز لها بسلمى فقال(٢):

خليلي رفقاً فالهوادي وكورُها أضرّ بها إدلاجُها وبكورُها

رويداً فهذا حيّ سلمى وتلكما مضاربها ذات اليمين ودورُها

قفا لي ولو لوث الإزار فإن لي حشاشة نفس قد تعالى زفيرُها

وعوجا على ذاك المعرس ريثما إلى سمعها يبدي السلام أسيرها

فقد طالما أمَّلتُ أنْ أرمقَ الحِمَى بعين يروي الترابَ منها غديرُها

معاهد روّاها العهاد لعلها كعهدي بها يروي الصدي مطيرُها

تروح وتغدو الغيد في عرصاتها أحال الثرى فيها عبيراً عبورُها

(١) المكان في شعر طاهر زمخشري، ص٥٧

(٢) ديوان ابن شهاب العلوي ص ٦٢.

بهـــا ســـحبت أذيالهـــا ابنـــة مالـــك وحســـبكما للـــترب فخـــراً مســـيرُها

ذرانـــي بهـــا أذري لعمـــري مـــدامعا يضـــارع هتـــان الغـــوادي غزيرُهـــا

سأتضـــي إذا لم أقـــض منهـــا لبانـــة فمـــن شـــأنها يقضـــي بهـــا مـــن يزورُهـــا

ولا بـــدع أن ذابـــت بهـــا مهجـــتي فمـــا ســـوى مهـــج القـــوم الكـــرام مهورُهـــا

ألا ليـــت شـــعري والأمـــاني عذبـــة وهيهـــات هيهـــات الأمـــاني وزورُهـــا

آللصـــبِّ مـــن ســـلمى علـــى بخلـــها بـــه وقـــوف علـــى بـــاب الخبـــا لا يضـــيُرها

عتـــابٌ ورمـــزٌ بالـــذي يصـــنع الهـــوى وتـــذكار أيـــام تقضّـــى حبورُهـــا

فحـــبي مـــن الـــدنيا هواهـــا وحبهـــا وســـيَّان عنـــدي حلوهـــا ومريرُهـــا

تأرجـــت الأرجـــاء طيبـــاً بهـــا كمـــا تـــبلج بالمحضـــار أحمـــد نورُهـــا

إن استدعاء الرمز (سلمى) المحبوبة ،وجعلها عنصرا رئيسا يهفو إليه قلب الشاعر، فيه دلالة الجالة النفسية التي يعيشها الشاعر ، وتبدو للعيان منذ الوهلة الأولى أنه استدعى (سلمى)للدلالة على المكان العالق في القلب والذهن الذي نشأ فيه الشاعر وأحبه لدرجة أنه أصبح عاشقا له ،ويرى فيه حبه الذي لايمكن أن يستغني عنه ،ولذلك صوره لنا كالفتاة

المحبوبة ، وهذا التوظيف لله أهميته ،وقد أدّى وظيفته ودلالته التي أرادها الشاعر وهي شدة تعلقه بمكانه الذي هاجر فيه،وتمنيه العودة إليه سريعا ، ومع أن الشاعر استخدم الرمز للدلالة على المكان المراد إلا أنه وظف بعض معالم ذلك المكان (الحمى- الترب –غديرها- معاهد.....)

إن بدء الشاعر خطابه الشعري (بخليلي) وتشخيصه المكان بجعله امرأة ،واعتماده على الوصف السردي يبيّن لنا الضغط العاطفي والوجداني الذي الذي قام به المكان على مخيلة الشاعر هنا، ونتج عن هذا الشحن النفسي أن اكتسب المكان دلالة رمزية بعد شحنه بألفاظ ومعان ذاتيّة تعبّر عن أحاسيس الحبّ والوفاء والولاء للمكان بوصفه جزء من هوية الشاعر التي لا يمكن أن يكون لها بديل. إن مما زاد جمالية توظيف المكان هنا هو ما قام به الشاعر من جعله المكان امرأة محبوبة معشوق لا يمكن أن يتخلى عنها ،وفي تفصيله لمعالم ذلك الحي الذي فيه تلك المحبوبة ،فمكان الشاعر الذي هاجر منه، كان له أثر في تحريك ذاكرة الشاعر، فوقف بخياله الإبداعي ورسم لنا المكان على شكل محبوبة ثم صور أطلاله وملامحه وصوره، ليعكس لنا الدلالات النفسية والاجتماعية والثقافية لذلك المكان.

والمكان الأليف هو "الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة" (١) وهذا صحيح، فليس من تأثيرٍ أقوى وأرسخ في الذهن من تلك البدايات الأولى للطفولة والصبا، التي تتشكل منها ملامح الإنسان

(١)- جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، ،المؤسسة الجامعية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٠، ص٦

الفكريـة والنفسـية والاجتماعيـة، لـذا نجـد أن الطفولـة والانتمـاء واسـتعادة الذكريات قد اتخذها شاعر المهجر الشرقي وسيلة لتوظيف المكان ، ويؤكد لنا هذا الشاعر محمود شوقي الأيوبي في قصيدته(وطني)(١) بهذه الأبيات التي يوظف فيها المكان مستذكرا طفولته، التي جعلته ينشدنا هذه الأبيات فيقول:

وطـــني بحبـــك تشـــرق الآمـــال وعلـــى أديمـــك لـــي هـــوى ســـيَّالُ

قـــد كنـــتُ فيـــك مـــن المعـــالي شـــعلةً بســـنائها شـــعرُ الهـــوى يختـــالُ

تتنـــاثر الأنـــوارُ فيـــكَ كأنّهـــا شـــعرٌ يجنّحـــهُ حجـــى وخيـــالُ

ربّـــى جمالـــك بالســـمو قـــريحتي فشـــدا بروحـــي للكمـــال ســـؤالُ

أأنـــا الـــذي شـــاطرتُ يومـــك بؤسَـــه أم يـــاترى عبثـــتْ بـــي الأهـــوال

مـــالي أرى شـــجني يُعـــذّبُ مهجـــتي بحمـــاك حتـــى قُطِّعَـــتْ أوصـــالُ

وطـــني سَـــبرْتَ حقـــيقتي فعـــرفتني وَعَرَفـــتَ مـــالم يعْـــرف الجُهْـــالُ

فـــسمعتُ منـــك قصـــائدًا عُذريـــةً فيهـــا يحـــنُّ فـــؤادك الميّـــالُ

(١) ديوان المنابر والأقلام ، محمود شوقي الأيوبي ،ص١٦٣.

أنـــا مـــن معانيـــك الحـــان تكوّنـــتْ نفـــسي، فقمـــتُ يُثيرنـــي الترحـــالُ

لم أختلـــقْ فيـــك الأغاريـــد الـــتي أسمعتنيهـــا وهـــي بـــي تنشـــال

لكـــنْ ترقـــرقَ في دمـــي أمواجهـــا فتجاوبـــت في روحـــيَ الميـــالُ

ســـأفيك حقَّـــك ماحييـــتُ فـــإن أمُـــتْ تســـلَمْ تصُـــنْكَ مـــن الـــرَّدى الأجيـــالُ

إنـــي نظـــرت بمجهـــري أدواءك ال جُلّى،لهـــا نحـــو الصـــميم صـــيالُ

فتطـــايرت نفـــسي شـــعاعا والـــرّدى متهوّرٌ،ولـــه ظُبَـــا ونِبـــالُ

هـــذي القـــروحُ ثلاثـــةٌ عمُقـــتْ لهـــا أبـــدًا علـــى جِسْـــم الحمـــى استرســـالُ

إذاً، فمرتع الطفولة هو الأقرب ألفة وحضوراً في قاموس الإنسان الحياتي، وبالتالي هو أحد أبرز المكونات اللاشعورية الثانوية في عقل الشاعر، بوصفه المكان الأثير لدى النفس(١)

(٣)جماليات التشكيل المكاني في ديوان " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة " ، أُلقي في المؤتمر العلمي بكلية الآداب بقنا جامعة أسيوط (سابقاً) وجامعة جنوب الوادي حالياً ، من ١٦-١٨ فبراير سنة ١٩٩٢م ، ونشر بمجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي بجدة عدد مارس ٢٠٠٠م ص٣٨٠

المتأمل للأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد جعل المكان(الوطن) من أول بيت إنسانا يعي ويفهم فناداه (وطني)،ليبني خطابه الشعري على الحوار الذي يقوم على مخاطبة (المكان)الوطن ،وتذكر أيام الطفولة ومافيها مواقف جعلته لا ينسى ذلك المكان الذي عاش فيه.

لقد عمد الشاعر إلى توظيف المكان عن طريق عرض تفاصيل الحياة الطفولية التي عاشها وكثر استخدام الفعل الماضي (كنت- ربّى- فشدا- شاطرتُ-عبثْ-أرى-قطعت-سبرْتَ-عرفتني-وعَرَفْتَ-فسمعتُ-تكونت نفسي-قمتُ-ترقرقَ-تجاوبت-نظرتُ-تطايرتْ) وهذا الأفعال الماضية ساهمت في التأكيد على أن علاقة الشاعر بالمكان عاقة مترابطة قوية ، كما ساهمت في تحريك ذاكر الشاعر فلجأ للحديث عن المكان الذي قضى فيه طفولته.

إن الخطاب الشعري هنا يقوم على استغلال بنية المكان(الوطن) من خلال الجمع بينها وبين الزمن(الطفولة) من أجل تقريب المسافة بين الشاعر وذلك المكان الذي تركه ، كما أن الخطاب الشعري هنا يعطي دلالة واضحة على سيطرة الأنا في توظيف المكان ،ففي أكثر الأبيات تظهر الأنا (وطني- كنتُ-قريحتي- روحي- أأنا الذي-شاطرتُ- عبثْ بي -مالي أرى-شجني-مهجتي- حقيقتي -عرفتني- أنا من معانيك- نفسي- يثيرني-إني نظرتُ.....)،وهذا يدل على احتلال المكان مساحة كبيرة في ذهن وقلب الشاعر، كما تدل هذه الأنا على أن الشاعر متشوق لوطنه وأنه يعيش في صراع داخلي ولم يجد ما يسلي به نفسه إلا تذكر ماكان يفعله في طفولته مع المكان (وطنه)، في علاقة انتماء للمكان(الوطن).

إن في تعامل الإنسان مع الذات المكاني استشعارًا لمعاني اللذة والألم ، والشقاء والسعادة ، والخوف والأمن ، وذلك تبعاً للحالة النفسية التي يعيشها الإنسان في أجواء ذلك المكان وكذلك الشاعر حيث يتعامل مع أسماء الأماكن (الكلمات) فإنما يتعامل معها وهي مشبعة بالمعاني الوجدانية التي تتجاوز المعاني الانفعالية الأولية ، يضاف إلى ذلك نتيجة الخبرة الفردية في ظل المكتسبات التي احتضنتها الكلمة الأولية عبر تاريخ حياتها في الفكر الجماعي(١).

لقد أصبح المكان مدونًا للذكريات في سياق الخطاب الشعري، بل أصبح المكان حلماً يَقتفي الشاعر أثره، وهذا الحس العميق بالمكان لا يتأتى إلا إذا كان((هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض/ الأم، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا)).(٢)

وهكذا نجد أن شعراء المهجر الشرقي قد وظفوا المكان الأم (المُهاجَر منه) من خلال ثلاثة اتجاهات: اتجاه اتخذ من الحنين والشوق للمكان الأم وسيلة لتوظيف الأماكن المقدسة، واتجاه عمد إلى توظيف الرمز للدلالة على المكان، واتجاه ثالث اتخذ من التغني بالطفولة والانتماء وسيلة لتوظيف المكان.

---

(١) ينظر: شاعرية المكان ، جريدي سليم المنصوري ، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدة ،١٤١٢ م =١٩٩٢هـ، ١٦ – ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٠

المحور الثاني : توظيف أماكن المهجر في شعر المهجر الشرقي وجماليته:

لم يقف شعراء المهجر الشرقي عند استحضار المكان الأصل الذي نشؤوا فيه فقط، بل استحضروا المكان الذي استقروا فيه أيضا ، حيث يجد القارئ أن شاعر المهجر الشرقي قد تغنى ووظف أماكن المهجر الشرقي ،وهذا التوظيف

اتخذ ثلاث اتجاهات أيضا :

- اتجاه اعتمد على وصف الطبيعة في توظيف أماكن المهجر الشرقي.

- واتجاه اتكأ على الرمز في توظيف المكان

-واتجاه دفعه الحنين للمهجر الشرقي بعد خروجه منه إلى توظيف أماكن من المهجر الشرقي في شعره..

إن المتأمل في حضور أماكن المهجر الشرقي في شعراء ذلك المهجر يجد تارة المكان حاضرا في الشعر الذي يصف الطبيعة ، وتارة يجد المكان حاضرًا عن طريق الرمز ،وتارة نجد المكان المهجري حاضرا في أبيات الحنين والشوق وذلك بعد أن يترك الشاعر المهجري تلك الأماكن التي هاجر إليها.

فأما توظيف المكان عند وصف الطبيعة ، فنجده عندما تغنى شاعر المهجر الشرقي بالأماكن التي هاجر ا إليها كجاوة، وسنغافوره وغيرها، فهذا طه علوي السقاف في قصيدته(الحضرمي المهاجر) [1]يتغنى بـ(جاوا)،

(١) مجلة النهضة الحضرمية العدادان ٦و٧ ص ٨

ويصف طبيعتها الخلابة ، ويرى أن المهاجر الحضرمي قد تعلّق بها؛ فيقول:

حلّ في ((أرخبيل جاوا)) كما حدَّ ثت أناسٌ قصّوا به الأعمارا

ورأى ((الأرخبيل)) وهو جِنَانٌ مخضلاتٌ تفجّرت أنهارا

فتَنَتْهُ بنتُ الطبيعة في(جا وا) وهزّت من قلبه الأوتارا

منظرٌ رائقٌ خمائل زهرٍ معرضٌ للحياة يُجْلى جهارا

لقد وظف الشاعر المكان(جاوا) المهاجر إليه واعتمد على الإخبار بالماضي وهذا يفيد أن التعلق والإعجاب قد حصل وتعمق ، كما اعتمد الخطاب الشعري على الصورة البصرية في توظيف المكان ومعالمه التي تتعلق بطبيعة المكان مما ساهم في نجاح ذلك التوظيف من جهة ،وساهم في إعطاء الدلالة النفسية من جهة أخرى .

لقد هدف الشاعر بهذا التوظيف للمكان ومعالمه إلى إيجاد صورة فنية قادرة على التعبير عما في نفسه، وعن تعلقه بعشقه (جاوا) ذلك المكان الذي هاجر إليه ، وقد عمد الشاعر إلى استخدام ألفاظ تعتمد على حاسة البصر:(رأى–جنان– مخضلات– تفجرت أنهارا– منظر– رائق –خمائل زهر– معرض – يجلى جهارا) لما تحمله من دلالات الشوق والإعجاب والأنس، والراحة، دلالات النماء والخضرة، فهذا المكان (جاوا) بصوره ومدلولاته هو حياة للشاعر.

وقد يُفسَّرُ لجوء الشاعر إلى الطبيعة بأنه مسلكٌ رومانسي، وهو صحيح في حالة الشعور بالغربة أو الوحدة، فالشاعر يفر إليها بحثاً عن ملاذ آمن؛ لكن نزعة شاعر المهجر المكانية ليس مبعثها الهوى الرومانسي بدرجة أساس، بل مبعثها الهوى المكاني، العالق في الذاكرة منذ لحظة وصوله المهجر ،كما أن تفاعله النصي مع المكان الخلاب مبدأ إيحائي تغذيه النفس(١)

لاشك أن الذات ترتبط بالمكان ،والخطاب الشعري تعبير عن تلك الذات، ولا يمكن أن يغيب المكان عن الذات الشاعرة حسيا، وذلك نجدها تعبر عنه شعرا، وقد نجد أحيانا أن فهم النص المتكئ على المكان وتحليله لا يتأتّى إلا بالرجوع للمكان بوصفه أحد عناصر العلاقات التفاعلية بين المتلقي والذات الشاعرة والخطاب الشعري .

يقول ابن شهاب العلوي في قصيدة له واصفا فيها المكان المهاجر إليه(سنغفورا) (٢)، الذي علقت صورته في ذهنه ،وأجبره على التغني به:

مدينة سنغفورا حين تبدو معالمها ترى السُّوحَ الرحيبا

فحياها الحيا الوسميُّ حتى يغادر سفحَها أبداً خصيبا

قصور لا يلم بها قصور ودور بالبدور نفحن طيبا

(١)دلالة المدينة في الخطاب الشعري ص ٢٦٧

(٢)ديوان ابن شهاب العلوي ص ١٦١

غـــوانٍ في مغـــان مـــن جنـــانٍ يقـــوم بـــدوحها القمـــري خطيبـــا

تشـــاهدُ في الريـــاض بهـــا قطوفـــا تنـــوء بحملـــها غصْـــنَا رطيبـــا

ولم تســـمع إذا مـــا طفـــت إلا حمامـــاً ســـاجعاً أو عنـــدليباً

وبـــالعُرب الكـــرام الســـاكنيها مـــن المجـــد اكتســـت بُـــرداً قشـــيبا

وجـــوه بالمكـــارم مُسْـــفِراتٌ سمـــت عـــن أن تـــرى فيهـــا شـــحوبا

هذا الحس العميق بالمكان لا يتجلى في تجربة الشاعر إلا إذا أصبح المكان متغلغلا يتبوأ مكانة في قلبه ووجدانه، وهو هنا ذلك الشيء الذي تعلق به شاعر المهجر الشرقي ،وبقي ملازما له حتى تجلى في تجربته الشعرية، يعيش معه ذكرياته ويوظف حركاته وسكناته، في تفاعلات نصية تمتد لتأخذ مساحة كاملة من النص، يرسم في ثنايا أبياته أدق التفاصيل المكانية العالقة في الذهن ، والشاعر هنا نجده تغنى بالمكان (سنغافورا وسفحها وقصورها ودورها ورياضها) وهذا كله يوحي بدفقة شعورية تجاه ذلك المكان ، وهذا ما يؤكده لجوء الشاعر لتوظيف المكان مطلع أبياته .

إن استدعاء الشاعر للمكان وتوظيفه على هذا النحو من الإحساس ، أضفى تجربة شعرية تفاعلية عن طريق الحقيقة التي عاشها وأظهرها في شعره وكأنها خيال ، فاستحضار تلك الأماكن التي عاش معها ذكريات

جديدة عوضته عن بلده الأصل زاد من وتيرة التفاعل بين النص والمتلقي يقويه تعلق شاعر المهجر الشرقي بالمكان . وعندما ينظر المتلقي من زوايا متعددة إلى النص سيظهر له أن اعتماد الشاعر على الصور البصرية والسمعية والشمية قد منحت المكان إضافات جمالية وإبداعية تتناغم مع روح المكان ونفسية الشاعر.(١) ،

تأمل معي هذه الألفاظ التي تقوم على حاسة البصر :(معالمها ترى السُّوحَ- قصور- ودور-تشاهد) ثم تأمل معي هذه الألفاظ السمعية :(القمري خطيبا-تسمع حماما ساجعا -عندليبا) ثم تأمل الصورة الشمية (نفحن طيبا) فستجد أن اتكاء الشاعر على هذه الصور المتعددة في توظيف المكان قد ساهم في فاعلية الخطاب الشعري ،ودل على دخول المكان وتغلغله في قلب الشاعر بكل تفاصيله وصوره البصرية والسمعية والشمية.

وعلى الرغم من الاتكاء على الألفاظ والتراكيب التقليدية إلا أن الشاعر نجح في التأثير بسبب تلك الصور المتعددة، التي أتت معها صدق التجربة ،والقدرة على تفصيل الوصف، الذي يجعل المتلقي يشعر أنه يرى تلك الأماكن،ويسمع ما يدور فيها.

لم يكتف شاعر المهجر الشرقي بتوظيف المكان عند وصف الطبيعة فقط فقد دفعه حبه لجمال المكان في المهجر الشرقي أن يستخدم الرمز للدلالة على المكان الذي يتغنى به ،فنجده يشبهه بامرأة حسناء قد سحرته بجمالها ، فهذا محمود شوقي الأيوبي يغرم بالمكان (أندونيسيا) وما فيها

(١) ينظر: جماليات التشكيل المكاني في ديوان (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) ،مرجع سابق ،ص ٣٨٨

من جمال فينظم قصيدة(الفردوس الاستوائي)(١) ويوظف فيها المكان بكثافة لشدة تعلقه به وبجماله: ومن تلك القصيدة قوله :

تمتع بمرأى الحسن في وردة الخد وفي الأعين الدعجاء والجيد و النهدِ

وذق خمرة الفردوس في الجيد واللمى ففيها شفاء النفس والقلب والكبدِ

وان رمت غادات الجنان فإنها على الأرض من وهد تسير الى وهدِ

وان رمت فردوسا مقيما فإنه بجاوا عروس الشرق بل جنة الخلدِ

تفجر ينبوع الجمال بساحها وسال كما سال الضباب على الورد

وما الحسن إلا في الطبيعة كلُّه ولكنّ جاوا للطبيعة كالعقد

وتفت بها في جنة الوجد والهوى فاذهلني من سحرها سانح السعد

واغرقت روحي في اثير خلودها وافنيتها في عالم النور والوجد

إن تصوير الشاعر للمكان على أنه فتاة حسناء ما هي إلا دلالات أكيدة على أثر المكان في حياة الشخوص مما يدفع هذه الشخوص إلى ما يسمى بالإسقاط، أي إسقاط المشاعر والأحاسيس على الأمكنة تلو الأمكنة

(١) ديوان المنابر والأقلام ص١٢٩

من خلال الرمز لها بالمرأة الحسناء المحبوبة التي تمتلك مقومات الحسن ،واستطاع الشاعر أن يوظف الرمز هنا لكي يعبر عن حالته النفسية التي تتمثل في الحب والعشق لذلك المكان (جاوا) [١].

لم تكن المرأة عند شاعر المهجر الشرقي رمزاً للمُتعة، أو للملهاة، بل كانت رمزاً لكلِّ ما هو جليل ومقدّس ، رمزاً للأرض وللمكان ، رمزا للوفاء والعطاء ، ومن هنا فإنّ الشاعر لم يتّكئ على جسدها، أو يسبح في أحلامه الوردية حيالها على وجه الحقيقة، بل جعلها رمزا للمكان، الذي أحبه وتعلق به ،بل اتّخذ منها ذاتاً أخرى تتصل بأكثر من وشيجة بذاته المُبدعة فمنحها أفضل ما يستطيع من الإجلال، والإكبار، وكان طيفها الأثيري ماثلاً أمام عينيه ومقيماً في وجدانه[٢]

يتجلّى لنا بصورة واضحة اكتساب المدينة (جاوا) صفات المرأة الحسّية من خلال إضفاء الشاعر عليها صفة التشخيص، حتى غدت فيها الحياة والحركة ومكونات الحسن الإنساني (مرأى الحسن–وردة الخد– الاعين – الدعجاء– الجيد– النهد– ذق – الجيد –اللمى– تسير–مقيما...) وكل ذلك تم بطريقة خاصة ارتفع فيها الجانب الجمالي حتى جعل منها حسناء فريدة وأضحى يصف للآخر هذا الجمال المختلف (تمتع،وذق– وإن رمتَ) ووقد حاول الشاعر في هذا الخطاب الشعري أن يخفي المكان الذي رمز له

---

(١)ينظر:أثر المكان في تشكيل الرواية السعودية لدى جيل الرواد ،إسامة محمد الملا ،د.م، جامعة الملك فيصل، (١٤١٩هـ=١٩٩٩م)،ص٤٥.

(٢) المعذب في الشعر العراقي الحديث، لؤي العاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد،٢٠٠٥: ٤ .

بصفات المرأة الحسناء ولكنّه لم ينجح في ذلك، حيث نجده في عملية تبادلية يصرح بعد عدة أبيات بالمدينة جاوا: (**وإن رمت فردوسا مقيما فإنه بجاوا**...)

إن البنية الظاهرة في الأبيات الأولى توحي بوصف ظاهرٍ ومُتجلٍ للمتلقي بأنه وصف لامرأةٍ حقيقيةٍ ، ولكننا عندما نتمعّن في سياق النص يظهر لنا أنها رموزٌ لمدينة جاوا، وهذه هي ((الرموز والدلالات والإشارات التي تُستنبط من النص الحاضر لإعادة بنائه وترتيبه وتركيبه على وفق الإشارات التاريخية والتراثية والاجتماعية والفكرية))[١]

إن فاعلية المكان –نصياً– تتجاوز مدركات وعي الشاعر، ويرجع ذلك إلى عمق ارتباط الذات الشاعرة بهذا المصدر، وغزارة جمالياته وسطوتها على مخيل الشاعر. ولك النظر إلى النص، فبؤرته التركيبية والفنية تأسست من الارتباط الوثيق بالمكان

ونأتي إلى الطريق الثالث من طرق توظيف أماكن المهجر لدى شاعر المهجر الشرقي وهو الحنين والشوق لبلاد المهجر الشرقي ،فبعد أن يستقر فيها الشاعر فترة طويلة من حياته يضطر لتركها، مثلما فعل الشاعر صالح العلوي الذي عاد لبلاده حضرموت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية ،وأجبره الحنين والشوق لنظم قصيدته((ظمأ شاعر))[٢]

---

(٣) النص الغائب، أحمد الزعبي، مجلة أبحاث اليرموك، م ١٢، ع١: ٢٢٥ .

(٢)ديوان على شاطئ الحياة ،صالح علي الحامدي العلوي ، سنغافورة ،ط١، ١٤٠٤. ص٤٢

يحن فيها إلى المكان (المهاجر إليه)بعد أن فارقه ،ويوظفه في خطابه الشعري مستذكرا بعضا من معالمه وطبيعته فيقول:

ظمئْتُ إلى الجداولِ حيْثُ تجري مجرجَرةً كألْواحِ اللُّجَيْنِ

عليْها الطيرُ تمرحُ شادياتٍ على إيقاعِها في الشاطئيْنِ

ظمئْتُ إلى الخمائلِ زاهراتٍ براها اللهُ نزهَةَ كلِّ عيْنِ

بها الأزهارُ تضحَكُ لاهياتٍ تهدهدها النعامى باليَديْنِ!

ظمئتُ إلى النسيمِ يهبُّ رخْواً كَوصْلِ الخلِّ وافى بعدَ بيْنِ

فالشاعر هنا قد ارتبطت مخيلته بذلك المكان الذي لا يمكن أن ينساه؛ لأن تلك الجداول التي تجري والطير التي تمرح ،والأزهار الفواحة العطرة كانت من أسباب سعادة الشاعر وراحته ،لقد عمد الشاعر هنا إلى توظيف المكان من خلال الاستعانة بالوصف السردي أو الصورة الوصفية السردية التي وظف من خلالها المكان ومتعلقاته: (الجداول- الطير-الشاطئين- الخمائل- الأزهار- النسيم)

إن حبّه وتعلقه بالمكان جعله يتخيل الأزهار كأنها مجموعة من الناس تضحك فرحا بهذا المكان الجميل ،وهنا استعان الشاعر بصورة بصرية سمعية مما لها التأثير القوي في ذهن المتلقي ،فالذي يقرأ(فالأزهار

تضحك وتهد هدها النعامى باليدين) يتخيل أنه أمام مشهد ينظره ويسمعه ،وهذا التوظيف يزيد من فاعلية النص وتفاعل المتلقي.

ومما زاد من جماليات توظيف هذه الأماكن التكرار الذي لجأ له الشاعر في هذه الأبيات حيث كرر(ظمئت إلى) ثلاث مرات مما يدل دلالة قوية على شغف الشاعر بذلك المكان ، وشدة تعلقه ، كالظمآن الذي يتعلق بالماء ليروي عشه، ومن هنا يتبين لنا أن الدلالة النفسية لتوظيف المكان هنا .

لقد استطاع الشاعر هنا أن يوظف المكان في أبياته عن طريق الصورة السردية التي أضفت جمالا لهذا النص، وساهمت في عملية التفاعل النصي مع المكان، وعمقها، ومما ساهم في فاعلية المكان ذكره لأشياء تذكره بالحنين للمكان وهي(الطير – الخمائل– الأزهار – النسيم)،فهذه الأمور زادت من تعلقه بالمكان ،وتذكر الأحداث مفصلة ، وهذا يجعل القارئ يعيش مع المكان وكأنه مع الشاعر عندما كان يقف في تلك الأماكن.

إن أول ما يلفت نظر القارئ أن النص هنا قد ازدان بالتفاعل مع المكان المهاجَر إليه الذي تركه الشاعر نتيجة لظروف أحاطت به، ((والمكان الذي نحبه يرفض الشاعر أن يبقى منغلقاً بشكل دائم، إنه يتوزع ويبدو وكأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة))(١)

إن هذه الأبيات أظهرت لنا المكان في المهجر الشرقي وهو يعبر عن نفسية الشاعر ، وفي نفس الوقت منسجما ومتوافقا مع رؤيته للمكان الذي هو أصل الحياة عنده ،وحاملا رسالة مفادها أن هناك علاقة قوية بالمكان

(٢) ينظر: دلالة المدينة في الخطاب الشعري ص ٢٧٠.

والشاعر تقوم على تبادل المشاعر ،وكل يؤثر في الآخر ، وكل ذلك ظهر لنا عن طريق الوصف كوسيلة أساسية لإثبات التعلق بالمكان . وما هذا إلا ((محاولة يتجسد من خلالها المكان في لوحة مصنوعة من الكلمات ، فالشاعر عندما يصف لا يصف واقعاً مجرداً ، ولكنه واقع مشكل تشكيلاً فنياً ، فالوصف للمكان هو وصف لوحة مرسومة ، أكثر من وصف واقع موضوعي "[1]

ويستدعي الحنين والشوق الشاعر مرة أخرى لتوظيف المكان وذلك بعد أن اضطرته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى العودة لحضرموت فأخذ يشكو تلك الظروف ويستذكر (جاوا) ذلك المكان الذي هاجر إليه فيقول:

يـــا جنَّتِـــي فارقـــتُ ســـوحك باكيـــا ورحلـــتُ عـــن مغنـــاك غـــيرَ عـــزوفِ

إنِّـــي لم أزركْ وحـــال دونـــك حائـــلٌ زوري بطيفـــكِ في الخيـــال وطـــوفي

لـــولا عـــوادي الحـــرب لم نُطـــل النـــوى ســـحقًا لهـــا كـــم داهمـــت بصـــروف .

ينادي الشاعر (جنتي) ويقصد (جاوا) المكان الذي هاجر إليه معتمدا على أسلوب الاستعارة التشخيصية ، رغم أنه بعيد عنه ،لكن لقربه في قلبه أراد أن ينزل المكان منزلة السامع لندائه، وقد جاء هذا النداء مثيرا للمتلقي أولا ،ودالا على تعلق الشاعر بالمكان ثانيا، ويزيد الخطاب الشعري إثارة

(١) ينظر :مقالة جماليات المكان في الرواية ،: أحمد زياد محبك، مجلة الفيصل ، العدد ٢٨٦، (١٤٢١هـ=٢٠٠٠م)،ص: ٥٦- ٥٧.

استمرار الشاعر في توجيه الحديث لذلك المكان(فارقتُ-رحلتُ-لم أزرك-زوري- طوفي)،فكأن ذلك المكان يسمع الشاعر، وهذا التشخيص زاد من تفاعل المتلقي مع الخطاب الشعري .

لقد اتضحت دلالة النداء من خلال السياق ،إذا كشفت لنا الألفاظ المصاحبة للنداء تمسك الشاعر الشديد بالمكان، كما اتضح لنا أن النداء لم يبق في حدود الحرف المستخدم فقط ،بل كشف لنا حالة الشاعر الحزينة الحانة للمكان ،فأكتسب النداء قوة تأثيرية إضافية .

فالمسألة ليست شكلية ولكنها نابعة من عمق وجدان الشاعر العربي الذي جبل على حب المكان الذي تطأه قدماه، حيث يجد فيه الراحة والاستقرار والحماية ، فتاريخ المكان في الشعر تاريخ عريق ، تجدد مطالع القصائد ما اندثر من أطلاله ، وتعيد إلى الذاكرة ما كان فيه من أحداث ،وما ارتبط به من الذكريات ، وهو تاريخ متصل تتناقله الأجيال وتتمثله، وتعيد صياغته على نحو من استلهام التراث المتجدد في روح المجتمع(١)

ومن هنا يتضح أن بين المكان ووجدان الشاعر العربي علاقات وثيقة، ولعل من أكثرها إثارة للمتلقي تلك العلاقة التي تجعل المكان متفاعلا مع النص ومع المتلقي ومع الشاعر نفسه ، وتقيم في الشعر مكاناً (٢).

والحضور المكاني عند شاعر المهجر الشرقي لم يكن على مستوى النص فقط، بل كان له الأثر البالغ في اختيار الشاعر عناوين قصائده الشعرية، إذ أسبغ على العديد منها وحياً مكانياً، فمن العناوين الشعرية التي

(١) المكان في شعر طاهر زمخشري، رسالة ص٥٧.

(٢) ينظر: شاعرية المكان ، مرجع سابق ، ٨ .

استحضرت المكان (جاوة الجميلة) وهي قصيدة لصالح العلوي ، وكذلك (سنغافورة) وهي قصيدة لابن شهاب العلوي يستحضر فيها أماكن الجمال في ذلك المكان.. واسم المكان عندما يمثل في البداية تكون له خاصية مميزة، إذ "يجعل من الاسم في ذاته دلالياً أولياً يفضي –فيما بعد– شيئاً فشيئاً إلى كل الدلالات الأخرى، ويظل في الوقت نفسه حاوياً لها في شحنته الداخلية بما هو العلامة الأولى في النص(١)

لقد استطاع شاعر المهجر الشرقي أن يتوصل بأدواته لغة وتصويراً إلى ما يحقق الفاعلية النصية ، كما استطاع أن يرسّخ أهمية المكان في ذهن المتلقي عن طريق ما عكسه من عبقرية المكان . كما استطاع الشاعر المهجر أن يساهم في إبراز ثبات المكان من خلال وسائل التعبير وطرائق الحديث عنه .

وهكذا يتبين أن شاعر المهجر الشرقي قد تغنى ووظف أماكن المهجر الشرقي ،وهذا التوظيف اتخذ ثلاث اتجاهات أيضا:– اتجاه اعتمد على وصف الطبيعة في توظيف أماكن المهجر الشرقي.

– واتجاه اتكأ على الرمز في توظيف المكان

–واتجاه دفعه الحنين للمهجر الشرقي بعد خروجه منه إلى توظيف أماكن من المهجر الشرقي في شعره..

وفي نهاية هذه الدراسة تبين لي ما يلي:

– توظيف شعراء المهجر الشرقي للمكان الأم في قصائدهم ،وقد جاء هذا التوظيف متخذا ثلاثة اتجاهات : اتجاه اتخذ من الحنين والشوق للمكان

٢١ – ينظر: دلالة المدينة في الخطاب الشعري ص: ٢٧٠

الأم وسيلة لتوظيف المكان، واتجاه عمد إلى توظيف الرمز للدلالة على المكان، واتجاه ثالث اتخذ من التغني بالطفولة والانتماء وسيلة لتوظيف المكان .

– أن شاعر المهجر الشرقي قد تغنى ووظف أماكن المهجر الشرقي ،وهذا التوظيف اتخذ ثلاث اتجاهات أيضا:– اتجاه اعتمد على وصف الطبيعة في توظيف أماكن المهجر الشرقي، واتجاه اتكأ على الرمز في توظيف المكان ،واتجاه دفعه الحنين للمهجر الشرقي بعد خروجه منه إلى توظيف أماكن من المهجر الشرقي في شعره

–سيطر المظهر الرومانسي على شعر شعراء المهجر الشرقي الذي تغنى بالمكان ،وكان أبرز روافد هذا المظهر (الألم و الاغتراب و الوحدة والعزلة و الحزن و الذاتية، والحنين، والتعلق ،والإعجاب.

–تميزت قصائد المكان عند شعراء المهجر الشرقي بالتصوير الفني التفاعلي ، واستطاع الشاعر أن يحاور المكان وأن يصوره أفضل تصوير فخلق نصا تفاعليا مع المتلقي.

–ارتباط أغلب الأحداث في حياة شعراء المهجر الشرقي بالأماكن التي عاشوا بها أو استقروا فيها ولهذا ظهر التميز والقوة في نصوصه التي تحاور الأماكن رغم تنوعها .

أهم المصادر والمراجع :

-أدب المهجر الشرقي ، د. محمد عبدالرحمن الربيع، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ، سلسلة الدراسات الأدبية، العدد ١، ١٩٩٩.

- إضاءة النص (قراءات في الشعر العربي الحديث) اعتدال عثمان، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨.

- أثر في تشكيل الرواية السعودية لدى جيل الرواد ،إسامة محمد الملا ، د.م، جامعة الملك فيصل، (١٤١٩هـ=١٩٩٩م) .

- جماليات التشكيل المكاني في ديوان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" لأمل دنقل، دراسة نصية: مراد عبد الرحمن مبروك، علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ج ٣٤، مج ٩، ديسمبر ١٩٩٩.

- جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، ،المؤسسة الجامعية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٠.

- الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، د.بكري أمين ،بيروت : مطابع دار صادر ، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م).

- دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

- ديوان على شاطئ الحياة ،صالح علي الحامدي العلوي ، سنغافورة ،ط١، ١٤٠٤.

- ديوان المنابر والأقلام ،محمود شوقي الأيوبي ، د.ط، د ت.

– ديوان عبدالرحمن بن محمد بن شهاب العلوي ،ط٢، مكتبة الإرشاد ،جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

– شاعرية المكان ، جريدي سليم المنصوري ، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، جدة ،١٤١٢ م =١٩٩٢هـ

– مجلة النهضة الحضرمية العدادان ٦و٧ ،مجلة أدبية كانت تصدر في سنغافورة ،١٩٣٣–١٩٣٤هـ

–المعذب في الشعر العراقي الحديث، لؤي العاني، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد،٢٠٠٥

– مقالة جماليات المكان في الرواية ،: أحمد زياد محبك، مجلة الفيصل، العدد ٢٨٦، (١٤٢١هـ=٢٠٠٠م)،.

–المفهوم الحديث للمكان والزمان: ب. س ديفيز، ترجمة: د. السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٨.

– المكان في شعر طاهر زمخشري، رسالة ماجستير، سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.